

التأثيرات شملت الموسيقى والملابس والزراعة ونمط العمارة والمصنوعات اليدوية والطعام

معالم التركة الحضارية الأندلسية في تونس

ودار شعبان.

ومن أسماء الأندلسيين الجدد الذين نزلوا تستور والقرى التي أسسوها على ضفتي وادي مجردة (يوجد واديان بهذا الاسم في تونس ونقصد هنا الشرقي) مثل قريش الواد وطبرية وسلوقية: شورية، ويلو، الوشرين، العنكرشة، الريشكو، بويو، جامبلو، سحابو، الستوري، شليطون، فازاج، النديكو، كريمو، مرتيل، بيروانة، الجورشي، البنتون، شركينة، ماركو، الفرصادو، كرسيتو، بومسيت، نيارو، البرزون، مانية، ابن مارية، ديلو، طرشون خربون، حربون، البروطو، استريكو، نيارو، غبارو، الكوندي، اشكلانط، مورينو، يونو وغير هذه الأسر كثير. (٢)

ومن مناطق الأندلسيين الجدد وحواضهم في شرقية تونس مدينة زغوان التي تقع على بعد ٥٢ كيلومتراً جنوب العاصمة تونس وكانت عامرة أيام الرومان. وتضم زغوان بين ٢٥ و ٣٠ ألف نسمة الآن وهي عاصمة لولاية زغوان التي هي أكبر المحافظات الزراعية في البلاد ومصدر منابع المياه التي تمد العاصمة. ونزل الأندلسيون أيضاً بعض المناطق الغربية من البلاد مثل عين دراهم القريبة من الحدود مع الجزائر وتعتبر من المنتجات التي يقصدها التونسيون.

وحلوا كذلك في المناطق الساحلية الشمالية مثل قلعة الأندلس والعالية وقرقراف ورأس الجبل وغار الملح، ومدينة بنزرت الساحلية الواقعة شمال غربي العاصمة تونس. وكان للأندلسيين في هذه المدينة المهمة حي خاص اسمه «حي الأندلس» جمع في ما بعد خليطاً من السكان. وأقام الأندلسيون في مدن وقرى هذه المناطق صناعات تقليدية أندلسية داخل البيوت مثل البلاط المزجج والملابس والمحفورات الخشبية يقول العارفون إنها تشبه ما كانوا يصنعونه في إسبانيا قبل نفيهم.

وللأندلسيين تجمّع مهم في الوطن القبلي المعروف الآن باسم محافظة نابل التي هي لسان بري يمتد في البحر شمال شرقي تونس. ومن الحواضر الأندلسية أو التي نزل فيها الأندلسيون مدينة نابل نفسها والحمامات وقرى كثيرة قريهما زرع فيها الأندلسيون منتوجات أصلها من العالم الجديد وحملها الأندلسيون معهم من إسبانيا مثل البندورة والبطاطا وبعض أنواع الفليفلة الخضراء والحمراء والتوابل. كما نزلت جماعات أندلسية كثيرة في العاصمة تونس وضواحيها نذكر من أسماء أسرها: صنيدي، العراندني، كونيكة، مناشو، الصوردو، ابن عاشور (ومنهم في الرباط)، موريشكو، مرياح، الحجيج، العمروسي، الوافي، الكعك، جبيس، السراج، قبادو، الباسطي، بيجار، درسول، نونية، الرجال، السبعي، ابن زكري، يشبيل، هرميلو، الحج، الحشائشي، الشريف، مشوش، الطره والي، وأسماء أخرى كثيرة.

ولم يقتصر نشاط الأندلسيين على الزراعة إذ شمل أيضاً التجارة. وبرع الأندلسيون في صناعات تقليدية بعينها ومن ذلك مثلاً صناعة الشاشية (الطرابيش القصيرة) التي كان الأندلسيون يعتمرونها في إسبانيا. ولهذا النشاط سوق خاصة صغيرة هي سوق «الشاوشين» في العاصمة تونس قرب جامع الزيتونة. وكانت تونس التي كانت في القرنين السابع عشر والثامن عشر من أهم مصدري الطرابيش إلى

عادل سعيد بشتاوي *

■ خرجت قشتالة من معركتها العسكرية ضد الأندلسيين بانتصار كبير بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢، لكنها خرجت من معركتها الحضارية والدينية مع الأندلسيين بهزيمة كبيرة. وبعد ١٠٠ عام من الاضطهاد والتنصير القسري والنهب المنظم الذي تلا تسليم غرناطة، لم تستطع إسبانيا تذيب الأندلسيين فلجأت إلى الحل الوحيد الذي تعرفه جيداً وهو القضاء العضوي على خصومها بالقتل أو التغريب.

وفي بداية القرن السابع عشر سعت إسبانيا إلى البحث عن انتصار سهل يغطي استمرار هزائمها أمام اعدائها ويبعد أنظار الناس عن إخفاقات مغامراتها العسكرية وسياساتها الاقتصادية السيئة ويوئنها المتراكمة فقررت تغريب الأندلسيين الجدد عن البلاد، ووضع نهاية لشعب أيقنت الحكومة الإسبانية تلو الأخرى أنه لا يريد الذوبان في الوسط القشتالي أو الانصياح إلى الكنيسة أو السلطة.

وخلال سنوات التغريب أعربت

عامّة إسبانيا عن انتهاجها بنفي

أعداء الدين الكاثوليكي، كما كانوا

يسمونهم. واعتبر الإسبان الأندلسيين

أعداء في وطنهم ثم اعتبروهم أعداء

خارج الوطن أثناء التغريب فتركت

السلطة اللصوص والقتلة وتجار

العبيد يتحكمون بمصير قسم كبير من

المنفيين، وربما لم يصل أكثر من

نصفهم إلى الوجهات المقصودة.

تونس

ونزل جمهور الأندلسيين المنفيين في تونس طبقاً للمؤرخ للمقري بعدد ربما تجاوز ١٠٠.٠٠٠ شخص. وورد عدد كبير جداً من أسماء الأسر الأندلسية في مصادر متفرقة تعود إلى مطلع القرنين السابع عشر والثامن عشر وكذلك في الدراسة التي أعدها جورج ماسي عن جامع تستور عام ١٩٣٢، والبحث الذي نشره الدكتور رشاد الامام في المجلة التاريخية المغربية بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٨١. وبين عامي ١٦٠٩ و١٦١١ استقبل الوالي عثمان داي الأندلسيين المنفيين واحتفى بهم «وخصص لهم الدور والأراضي وسعى إلى توظيف خبراتهم المهنية ومعرفتهم للغة القشتالية ولاساليب الحروب البحرية التي تفننوا بها. وأنشأوا نتيجة ذلك مدناً عدة ما زالت تشهد بخصوصيات العمارة الأندلسية حتى يومنا هذا، وهذا فضلاً عن ترجمتها بدقة عن أسلوب حياتهم وعاداتهم ومطبخهم وتقاليدهم». (١)

ومن الحواضر التي نزل فيها الأندلسيون أو أسسوها وسط الشمال التونسي مدينة تستور التي تقع على بعد ٦٠ كيلومتراً جنوبي غرب العاصمة تونس، وهي تُعتبر مدينة الموشحات الأندلسية المعروفة أيضاً باسم «المالوف» أو «المالوف» أي الموسيقى المورثة عن الأندلسيين كما هي شائعة في المغرب والجزائر أيضاً، وربما استضافت المدينة الموسيقى الأندلسية كما تعرفها جوقات إسبانية. وتقع جنوب غربي تستور مدينة تبرسق التي تضم عدداً مهماً من المباني ذات العمارة الأندلسية، وتشيع فيها الأسماء الأندلسية ومثلها أيضاً مدينة سليمان ومزل بوزلفة وقرنباية



بنزرت.



نابل.

إنعاش الاقتصاد التونسي لذا لم يمض على وصول الأندلسيين إلى تونس أقل من نصف قرن حتى كانت جهود إعادة الإعمار اقتربت من الإكمال، وعرفت تونس بعد ذلك مرحلة طويلة من الاستقرار السياسي النسبي حتى تملكها فرنسا اعتباراً من عام ١٨٨١. واستمر الانتعاش في عهد الفرنسيين لكن جل المستفيدين منه كانوا فرنسيين أو إيطاليين أو من جزيرة مالطا وصقلية واليونان. و ظل هذا الوضع قائماً حتى نيل تونس الاستقلال في ٢٠ آذار (مارس) ١٩٥٦ وإعلان الجمهورية بعد ذلك بسنة.

(٢) «الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين»، الدكتور عبد الجليل التميمي، زغوان (١٩٨٩)، ص ٦٤.

(٢) اعتمدتُ في كثير من هذه الأسماء على الدراسة القيمة التي أعدها الأستاذ فقيه محمد الباحث في المعهد الأعلى للتوثيق في الجامعة التونسية وقدمها للمؤتمر الثاني للجنة العالمية للدراسات الموريسكية الذي عقد في تونس بين ١٩ و ٢٤ أيلول ١٩٨٣، وهي بعنوان: «دين الموريسكيين الأندلسيين وهويتهم ومصائر وثاقهم».

* من أسرة «الحياة»، والمقطع هنا من الفصل الخامس في كتاب «الامة الأندلسية الشهيدة» الذي سيصدر قريباً عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

وكانت مدينة ازدهرت فيها التجارة والصناعة والثقافة والتعليم. إلا أن تونس ومعها معظم المدن التونسية الأخرى تعرضت بعد ذلك إلى عدد من النكبات فأودت موجات من الطاعون بحياة الكثيرين، ثم امتد الصدام بين العثمانيين والأوروبيين إلى السواحل المغاربية فبدأ كارلوس الخامس سلسلة من الحملات العسكرية البحرية التي انتهت باحتلال تونس عام ١٥٣٥.

وبقي الإسبان في البلاد نحو ٤٠ عاماً إلى أن تمكن العثمانيون بقيادة سنان باشا وبمساعدة التونسيين من إخراجهم عام ١٥٧٤ بعد سلسلة من الأخطاء التي ارتكبها دون خوان النمسوي الذي كان يحلم بموافقة الملك فيليب الثاني على تعيينه ملكاً على تونس. لكن البلاد كانت اقتربت في عهد دون خوان من الدمار الشامل وحل خراب عظيم باهم مدنها تونس نفسها وصفاقس والقبروان وبنزرت وسوسة (حضر موت الفينيقية). وفي عهد الداى عثمان ثم في عهد الداى يوسف من بعده بدأ جهد كبير لإعادة الإعمار. وجاء الأندلسيون تونس في وقت حاسم فصبوا خبراتهم في الري والزراعة نحو إنهاض الأراضي الزراعية وتوسيعها وتنويع المحاصيل التي باتت تشمل الحمضيات والكرمة والمشمش واللوز وغيرها من الفاكهة التي لا تزال المناطق الساحلية الشرقية الإسبانية تزخر بها.

وساهمت هذه الجهود في تسريع



سيدي بوسعيد.

دراهم.

وجود قسم كبير من الأراضي التونسية في مستوى قريب من مستوى البحر (تمتد شواطئ تونس مسافة ١٣٠٠ كيلومتر) مما يسمح برشح الماء، إلا أن الأمطار الغزيرة تهطل على تونس في الشتاء مما يزيد حاضرة. ومع ذلك لا

يمكن تصور تونس قبل مجيء الأندلسيين، ولا يمكن أيضاً فصل التأثير الذي أحدثه الأندلسيون في تونس عن التأثير التونسي المحلي

الدولة العثمانية حتى تعلم الأوروبيون صنع الطرابيش فصدروها بكميات كبيرة إلى الدولة العثمانية ما أحدث كساداً في البلاد التونسية.

الأثر والتأثير

وتحمل تونس وصف «الخضراء» من أيام الرومان الذين أغرموا بإطلاق صفات الألوان على بعض الأقاليم التي حكموها. ومن أسباب هذه الخضرة